الشاعر والتاريخ

الخميس 15 سبتمبر 2011 12:09 م

د/ جابر قميحة

بين الشعر والتاريخ وشيجة قوية وثيقة ؛ فقد كان التاريخ – وما زال – منهلاً عذبًا يمتح الشعر منه متحًا ، وهو معين لا ينضب أبدًا ؛ لأنه ترجمان الحياة الإنسانية ، وسجل الأمة في منشطها ومكرهها ، في سرائها وضرائها .

وفي حياة كل أمة مواقف تنطق بالروعة والعظمة والجلال ، وفي حياتها كذلك نكبات وأزمات ، تتوقف فيها مسيرتها ، وتتعطل فيها طاقاتها وإمكاناتها

والشعر يصور كل ذلك ، ويقف طويلاً أمام كل ظاهرة من هذه الظواهر ، فهو يسجل المفاخر والمزاهي ، ليكون مدد قوة وفخار لأجيال القادمين ، كما يسجل المهاوي والخطوب ، لينفث في الأمة روح اليقظة ، ويستنهض منها خالد الهمم ، ويحيي فيها ميت العزائم .

وقد كان التاريخ القديم هو المورد الرقراق الذي استقى منه " هوميروس " أعظم عمل فني شعري حتى الآن ، وأعني به : " الإلياذة " و " الأوديسة " ... ذلك العمل الذي شد إليه – وما زال – أنظار الأجيال وقلوبهم ، وكان مثلاً عز أو استحال ملاحقته ، فمضى عملاً فذًا لا يطاول حتى الآن .

وللتاريخ على اختلاف مراحله – مكان وأي مكان في شعرنا الحديث ، ومن أراد الشواهد فليرجع إلى ديوان " مجد الإسلام " أو الإلياذة الإسلامية لأحمد محرم الذي سجل فيه حياة الرسول وأيام المسلمين في عهد النبوة .

وليرجع إلى مسرحيات شوقي الشعرية : مجنون ليلى ، وعنترة ، وقمبيز ، ومصرع كليوباترة ، وعلي بك الكبير ، ومطولته الرائعة " كبار الحوادث في وادي النيل " التي عرض فيها تاريخ مصر وأمجادها . وليرجع كذلك إلى عمرية حافظ إبراهيم (عن عمر بن الخطاب) ، وعلوية محمد عبد المطلب (عن علي بن أبي طالب) ، وبكرية عبد الحليم المصري (عن أبي بكر الصديق) ، وخالدية عمر أبي ريشة (عن خالد بن الوليد) رضي الله عنهم جميعًا .

وإذا كان التاريخ مصدرًا غنيًا ثرارًا للشعر يمده بكل ما يريد في سماحة وطلاقة ، فالشعر من جانب آخر حفظ أيام العرب ومفاخرها في عصورها الأولى التي كانت تعتمد على الحافظة لا التدوين المكتوب : فلولا الشعر الجاهلي لضاعت من سجل التاريخ أيام العرب وأمجادهم وملامحهم وأسلوبهم في المعيشة والحرب والسلام .

وأكثر من ذلك استطاع الشعر أن يحفظ " جغرافية الأرض العربية " التي محيت ، أو ضاع أغلبها من سجل الواقع . ومن هذه الأماكن " اللوى ـ الدكادك ـ ملحوب ـ القطبيات ـ الذنوب ـ عردة ـ قفا حبِّ ... الخ " .

والإلياذة – على ما فيها من ميثولوجيات ، وأساطير ، وخيال مجنح – رسمت لنا طبيعة الشعب اليوناني وخصائصه وأيامه وعاداته وتقاليده ، فكان بذلك سجلاً خالدًا لتراث عظيم ، حتى قال "هيجيل " : من يقبل على دراسة ملحمة ما يكن قد أقبل على دراسة أمة بتاريخها .

ويرى " هيجيل " : أن مجموع الملاحم العالمية يشكل تاريخ العالم بأجمل ما فيه وأكثره حيوية وحرية .

فالأدب - بعامة ، والشعر - بصفة خاصة – يعد بصورة غير مباشرة مصدرًا من مصادر تاريخ الأمة ، ويعتبرمصدرًا رئيسيًا من مصادر هذا التاريخ في الفترات الضاربة في القدم والغموض ، وخصوصًا إذا قلت – أو انعدمت – المصادر الأخرى .

وهناك فارق موضوعي وفني بين الشعر التاريخي ، والتاريخ الشعري ، مما يحتاج منا إلى مقال آخر .

gkomeha@gmail.com